النقد الروائي البنيوي بين إشكالات اللغة و ضوابط النسق

د. أحلام بن الشيخ
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

" و كما أنه لا يمكن لأي علم أن يتجاوز الرياضيات، فكذلك، لا يمكن لأي نقد أن يتجاوز لغوياته".
(وايت هول:1956)

ملخص:

تطرح إشكالية التعامل مع النقد البنيوي للنص الروائي نصيبا وافرا من التحديد والتضييق الذي من شأنه أن يجعل من أية مقاربة تطبيقية مشكلة في ذاتها لما يجابه الدراسة من خطوط فاصلة بين وجهات نظر عميقة تتحكم في المقاربات السردية؛ حدها الأول لغة الاختصاص، و الثاني آفاق المقاربة.

Résumé :

La Problématiques de la critique structurelle du texte romancier partage beaucoup de détermination et de restrictions , qui rendrait toute approche pratique à un problème en soi a cause des points de vue profond des approches narrative , qui est contrôlé par la nature du langage et de la qualité de l' approche.

مدخل:

لا تكاد المقاربات المنهجية (التطبيقية) الحديثة للنص الروائي العربي تخفي بأي حال تعثرها بحجر المنهج ومشكلاته مهما كانت انتماءاته الفلسفية أو جذوره الفكرية، مستعرضة جملة العوائق التي تتفق في خطوط عريضة أبرزها المشكلين الثقافي و اللغوي -مهما اختلفت مشاربها العلمية-، و لعل تنقل الدارس من حيرة دقة المصطلح و بالتالي محدودية لغة الاختصاص، إلى حيرة حدود المقاربة و ما يمكن أن تسمح به من تجاوزات قد تؤثر على مدى التزامها بحدود المنهج.

و لعل البحث في لغة النقد الروائي البنيوي و خصوصيتها يحتم في هذا المقام التركيز على أبرز ما يمكن أن يساور العملية النقدية من مشكلات تعتبر اللغة أول مسؤول عنها لا سيما و أن عامل الترجمة ماثل في هذا الصدد نظرا لغربية المنهج و كذا ضرورة تحيين ما يجب العمل به من آليات تسمح بالمقاربة الدقيقة و السليمة للنص، والتي أصبح يدعو إليها الكثير من المتخصصين في هذا المجال، بناء عليه تتكفل الحاسة النقدية بعملية مزدوجة تنقل الدارس من باحث في اللغة الناقدة الخاضعة للخصوصية المنهجية إلى مستوى آخر يجمع فيه ما تهيأ ومن ثمة التعامل مع النص.

بين اللسانيات و النقد:

قدمت اللسانيات من خلال جهود فردناند دي سوسير للغة عموما، و للدراسات الأدبية و النقدية على حدّ سواء، فتحا جديدا تطورت من خلاله هذه الدراسات، رغم المزالق و الانتقادات التي نالتها لما ترسّب عنها من زلات، دفعت النقاد تحديدا إلى البحث عن حلول جذرية، بل و حاسمة، تتلافى من خلالها ما أصبحت تعانيه من فوضى مصطلحية، تأثر تأثيرا كبيرا على لغة النقد المتخصصة- و إن كانت المشكلة عربية أكثر منها غربية- . إن لغة النقد على وجه العموم لا تكاد تنفصل عن لغة الأدب من حيث تأديتها لدورها إزاء ذلك المتلقي المتوسّم للدقة، و الذي ينشد الضبط و التدقيق والتمحيص لما لا يمكنه هو ذاته العمل عليه، و منه تعتبر العملية النقدية عملية تواصلية بحته تنطلق من وعي الناقد إلى وعي المتلقي. ولا تنفك لغة النقد تتناول الأدب بمقاييسها و قوانينها و سننها مستفيدة من اختلاف المناهج و معتبرة تغيّرها واجبا يستلزمه تطوير الدرس النقدي. و تعد النظرية البنيوية وفق هذا السياق من أبرز النظريات الحداثية الغربية التي وفرت للنقد الأدبي الأدوات والإجراءات اللازمة وفق رؤية تنطلق من اللغة و تعود إليها ساحبة عباءة التخصص و الدقّة على مبادئها و إجراءاتها في النصين الشعري و السردي، مما قوّض فكرة التدخل المباشر للناقد و كيّف هذه اللغة (الناقدة)، حيث تخضع خضوعا تاما لمنظومة مصطلحية تنطلق من البنية و النسق أولا حتى أن الإجراءات التي قدمها كل من: رولان بارث، جرار جينيت،و أ.ج غريماس... وغيرهم، أو التي قام بترجمتها وشرحها وتطبيقها عربيا من النقاد الكثير، تحيل اللغة النقدية إلى معجم موحد لا مجال للتفاوت فيه لغويا من غير التعريج على الخصوصية النصية التي لا مجال للتفصيل فيها في هذا المقام، أو طبيعة الإجراء على أننا سنركز في هذا المقال على النص الروائي.

اللغة و النقد الأدبي:

أ-اللغة:

إن اللغة مادة حيّة ووسيلة أساسية في عملية التعبير، تكون كامنة في الفكر فتستنطقها أو تستثيرها حاسة المؤلف لتتحرّك، فهي وفق هذا المنطلق مجموعة القوانين و الاصطلاحات المتفق عليها ضمن حدود اجتماعية، عرفها دي سوسير" اللغة ليست سوى جزء جوهري محدد (من اللسان)، و هي في وقت واحد نتاج اجتماعي لملكة اللسان،و تواضعات ملحّة و لازمة يتبناها الجسم الاجتماعي لتسهيل ممارسة هذه الملكة لدى الأفراد"[1]. و قد تعرض علماء العربية منذ القديم لتعريف اللغة، فعرّفها ابن جنّي بقوله:" أما حدّها (فإنها أصوات) يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[2]، و يعرّفها الخفاجي قائلا: "اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصودهم، و تلك العبارة فعل لساني فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها و هو اللسان و هو في كلّ أمة بحسب اصطلاحاتهم"[3].

إنها في منظور عبد المالك مرتاض: "مادة على ما فيها من حياة نابضة، هي في الوقت نفسه، من كثير من المناحي، مادة ميتة كامنة في الذاكرة إن شئت، و قابعة في بطون المعاجم إن شئت، وجاثمة بين أسطر المجلدات إن شئت أيضا و إنما الذي يمنحها حركة وحياة و نبضا، و يحملها على النشاط الدلالي ذلك العنصر الرابع، ذلك الشخص الذي يدعى في معجم النقد المؤلف في حال، والقارئ في حال أخرى، و لكن هذه المادة الحيّة الميّتة، الساكنة المتحرّكة، الناطقة الخرساء معا، لا يجوز أن يكون بدونها بناء أسلوبي في علم الإبداع"[4]. إن اللغة هي الوسيلة التي يعتمد عليها الإبداع الأدبي قبل الخوض في الحديث عن الأسلوب و من هنا تجاوزت الدراسات اللسانية الحديثة البحوث النظرية القديمة و التي لم يتعدّ فهمها للغة الفهم القائم على أنها مجموعة من الرموز و الألفاظ و لا تعبر أو تمثل في ذاتها منطقا فكريا أو أنها لا تقوى على كشف ما وراءه أو ما يمكن أن نسميه نظام القيم اللغوية.

ب-النقد الأدبي:

لقد هيأ النقد حياة نصوص الأدب و إبداعاته مذ كتب للخليقة أن تحتفي بآدابها و عمل على اعتباره وسيلة للمكاشفة والتصحيح و التنقيح و التوجيه، و كذا إبداع لغته الواضحة و الصريحة المنطلقة من جذور فكرية و فلسفية و معيارية بالأساس وعليه لا يمنع مانع من أن يحتفي النقد بلغته الخاصة، بل أنه من الواجب على الناقد العناية باللغة و إخضاعها إخضاعا تاما للإجراءات النقدية الخاصة في المناهج النقدية و حتى القراءات التذوقية، لأنها -اللغة- وسيلة من وسائل تحقيق الفرادة والتميز إن لم تكن أهمها. لكن المثير في العملية النقدية الحديثة و المعاصرة ذلك التخبط و التفاوت الذي أصاب الحقل المعرفي الذي يستمد منه النقاد قيمهم المعرفية، على اعتبار أن النقد نشاط فكري و اجتماعي، يؤثر على أدواته الإجرائية و التقويمية و التقييمية. مما يجعل النظرة إلى اللغة جزءا لا يكاد يضاهى بالمشاكل الكثيرة التي تعتري العملية النقدية عموما، انطلاقا من الصراع الحضاري والفكري و انتهاء إلى اللغة.

ج-النقد و المرجعية اللسانية:

يستقي المصطلح النقدي اللغوي مادته من المعجم اللساني، إنه ببساطة لغة تقدم اللغة حين يركز على مجموعة القوانين الاختيارية التي استخلصت من النص عينه، و يلتزم بدراسة النص و بناه ووظيفته بمعايير علمية. إن المصطلح النقدي اللغوي في المنظور اللساني، هو ذلك المصطلح الذي ينطلق من الكفاءة الوصفية، إلى التفسيرية، مرورا بالكفاءة التقويمية التي تنشدها العملية النقدية اللغوية، في ظل انحصار النقد الملتزم بحدود النص أو النسق داخل دائرة الإحصاء، و التطابق النمطي أثناء التركيز على الجانب الشكلي للبنية، التي أفضت بالنص النقدي إلى تقليد مخططات ثابتة، لا تتغير في ثناياها إلا بتغير محتويات النصوص، ولعل إشكالا آخر هو التكرار و التقليد دونما الخصوصية و الفرادة اللغوية يطرح بجد ها هنا حينما تنحصر المعاجم و تتقيد بمنطق المنهج و لا تدع للناقد

مجالا من الخصوصية الذوقية و إن كانت أقرب من إلى الموضوعية التي كانت تتوسمها المناهج السياقية في بداية العصر الحديث.

و لا يمكن التسليم بالانفصال بين النقد و اللغة حيث "لم يكن كروتشه يفرق بين فلسفة اللغة و فلسفة الفن كما لم يكن النقد العربي يفصل قضاياه عن قضايا اللغة... و لا يكاد يختلف الأمر عما عليه الحال في النقد المعاصر. فقلما نلفي ناقدا عربيا لا يدرك منزلة اللسانيات في المعارف الإنسانية بعامة و النقد الأدبي بخاصة"[5]. و رغم الاختلاف الكبير في أصول البنيوية من مفكر إلى آخر، إلا أنها تلتقي في استخدامها لمعجم موحد، و هو ما يمثل القاسم المشترك بين البنيويات المتفرّعة "هذا الأصل المشترك هو إلى حدّ كبير مسألة مفردات لغوية، فهناك عدد من المصطلحات التي تتكرر في أعمالهم، و تتكرّر بشكل لا مفرّ منه في شرح لأعمالهم و يضطلع به سواهم، و هذه المصطلحات مألوفة في فرنسا أكثر مما هي مألوفة خارجها"[6] ،فلو أخذنا على سبيل المثال الاختلاف اللغوي في اللغة الناقدة بين هؤلاء النقاد لتمكنا من ملاحظة بعض الفروق الناجمة عن التخصص ضمن البنيوية ذاتها،كان البنيويون يحللون موضوعاتهم بلغة مجازية و استعارية كما هو الشأن بالنسبة لـ ليفي ستراوس و بارث و دريدا أحيانا وكثيرا ما تربك هذه الاستعارات القارئ؛ و لا سيما عندما تتم موازنتها مع المصطلحات اللسانية المستعارة، فالدال الذي يدعونا بارث إلى تفجيره غير الدال الذي يتحدث عنه دو سوسير. إنه يتصف بالتجريد الصوري الذي لا يماثله سوى استعمال لاكان له على نحو أكثر تجريدا"[7]، و لعل ذلك ما أدى بنا إلى اعتبار بارث يمارس لعبة المراوغة مع اللغة و مردّ ذلك غي واقع الأمر تلك النقلة النوعية من الاتكال على العلوم الإنسانية إلى اللسانيات.

و بدأ الخطاب البنيوي بعد أن أثبت جهوزيته لتناول النص الأدبي يتلقّى من خلال لغته طريقه للتماسك ومن ثمّة التفهّم لإجراءاته بعد أن باتت قراءة الأنساق الأنثروبولوجية و الاجتماعية و الثقافية مجرد مقدمات معزولة و غير مرتبطة بمنهج محدد مما عمّق فكرة النظر إلى النسق ووجوب ضبطه حيث ترتكز عليه المقاربات البنيوية إذ أعلنت خصوصيتها منذ البداية بتعلقها بالنسق المغلق والتحليل المحايث. و إذا كان دي سوسير هو أول من أطلق المصطلح عوض البنية فإنه كان ينظر إلى اللغة على أنها نسق مركب من أدوات التعبير "فاللغة –في تصوّره- نسق لا يعرف إلا طبيعة نظامه الخاص، و هي نسق سيميائي يقوم على اعتباطية العلامة و لا قيمة للأجزاء إلا ضمن الكل"[8]، و لما أدركت المقاربات البنيوية أهمية النسق و أخذت تبحث إشكالية مواصفاته و إن كانت وقعت في مغالطة النسق المغلق إلا أنها حاولت أن تحاكيه في سعيها لبناء نسق أدبي. لكن سؤالا جوهريا لاح في الفق و تردد على ألسنة النقاد صاغه أحمد يوسف الصياغة التالية:" هل يكفي أن تتذرع القراءة النقدية بأنها تتعامل مع النص تعاملا لسانيا من منطلق أنه كيان لغوي قبل أن يكون أي شيء آخر حتى يتسنّى لها أن تكتسب طابعا نسقيا؟"[9] و خلص أحمد يوسف في نهاية الدراسة

-القراءة النسقية- إلى أن الوعي النقدي الحداثي سرعان ما انتظم داخل أدبيات القراءة النسقية للاتصال الوثيق بين الثقافة النقدية العربية القديمة و اللغوية، و أكّد في خاتمة البحث على أن التعامل مع النص الأدبي كبنية ذات قوام لساني أصبح أمرا لاغيا لأن " النسق ليس معطى أوليا كما كانت تؤكده الشكلانية الروسية، إنه نسق مفتوح بحاجة إلى المتلقي و القارئ لبناء انسجامه و على الرغم من ذلك فهو يتغيّر بتغيّر مواصفات المتلقي و شروطه"[10].

إذا كانت اللغة الواصفة هي اللغة الوحيدة المهيمنة على النقد المبني على النظريات اللغوية، فإنها تمنح للناقد القدرة على الاستفادة من الجانب النظري واستلهامه بعناية أثناء المقاربة التطبيقية مما يكفل على الأقل التطبيق الواعي للجانب النظري أو بتعبير آخر تحقيق الكفاية المعرفية المنطلقة من الفكر المنتج للرؤية النقدية، و في هذا الصدد لا يتم توجيه اللغة الناقدة بقدر ما يتمّ إلزامها بحدود الرؤية الفكرية والفلسفية و من ثمة العلمية للمنهج.

البنيوية و نقد النص السردي:

تتسم المقاربة البنيوية للنص السردي بخضوعها خضوعا تاما للمعجم اللساني، مستغلة هذه اللغة الخاصة التي تتّخذ عاملا للمعرفة، حيث يعتبر عامل الاتصال معيارا أساسيا لتحقيق القصد التواصلي، وبالتالي بناء علاقات خاصة بين الدوال ومدلولاتها، يتوفر فيها عامل التجانس التام، الذي يفضي في النهاية إلى التواصل الناجح، مما تبتغيه النظرية اللسانية. فالسياق في التواصل العام مفتوح، أما في التواصل الخاص (اللغة الخاصة) سياق لغوي محدد، لكن المثير في العملية النقدية التي تستغل المنهج البنيوي إطارا لها ذلك الانفصام الشديد بين الجهاز المفاهيمي و الإجراء حيث يتم تشويش قناة التواصل اللساني عندما لا تخضع منظومة المصطلح خضوعا تاما للمنهج.

و يعتبر رولان بارث أن نشأة التحليل البنيوي للسرد ترتبط بالتطور الأخير للسانيات البنيوية، و يعتبر هذا المجال من الدراسة والبحث و التحليل عملا دقيقا حين يقول: "أن الاشتغال على معنى أو معاني النص(لأن هذا هو التحليل البنيوي للسرد) لا يمكن أن ينفصل عن منطلق فينومينولوجي (ظاهراتي)، فلا توجد آلة لقراءة المعنى؛ حقا توجد آلات للترجمة تحتوي الآن و ستحتوي حتما على آلات للقراءة"[11]. لقد أثرت نظرية السرد البنيوية على مسار النقد الغربي و العربي على حد سواء حينما استقبلتها الحاسة النقدية بوعي تام بعد مرحلة المخاض العسيرة التي لاقتها فكرة تقبّل البنيوية و هي تحاول الزحف و من ثمّ الإجهاز على العلوم الإنسانية و مقارباتها للنص الأدبي، لقد اقتصرت المرحلة الأولى في تلقي البنيوية على توظيف المنهج في مقاربة النصوص الشعرية مستغلة الأدوات الإجرائية التي ظهرت في مرحلة مبكرة من البحث، و انتقل استغلال هذه الإجراءات للنقد العربي فكان من أبرزها المحاولة الرائدة لكمال أبو ديب في إعادته قراءة الشعر الجاهلي وفق رؤية تختلف اختلافا جذريا عمّا كان سائدا في العملية النقدية في بداية العصر الحديث. و من ثمّ أصبحت

معاينة النصوص السردية بمثابة الدليل على حاجة النقد العربي إلى إجراءات يقارب بها النص السردي من جهة و دليلا على تمسك النقد العربي بالفكر البنيوي من جهة ثانية، و لعل أنضجها-لا أكملها-دراسة سعيد يقطين التي سبقت و أتبعت بدراسات أخرى ترمي نفس المرمى و تتقاطع في ذات السياق إلا أن محاولاته النقدية نظريا و تطبيقيا كانت تبدو أقرب إلى استغلال لغة نقد السرد من معاجمها الأم دون التفاف على المصطلح أو طرحه بأكثر من طرح، لذا يعدّ كتابه "تحليل الخطاب الروائي: الزمن- السرد- التبئير" كتابا مهما ضمّنه جملة المفاهيم الأساسية لنظرية السرد البنيوية.

ولعل اللافت أن ما تشترك فيه الدراسات العربية المهتمة بالبنيوية و إجراءاتها عنايتها بالموروث السردي مما جعلها تتدرج في تلقيها لإجراءات البنيوية ضمن المستويات الثلاث التالية:

-مستوى النقد التطبيقي الذي يعاين المشكلات المنهجية.

-مستوى النقد التطبيقي الملتزم بنظرية السرد البنيوية.

- مستوى النقد التطبيقي المتفاعل مع النص.

و يتدخل رولان بارث لتحديد و ضبط النقد التطبيقي عندما يربطه باللغة قائلا:" لما كان الأمر يتعلق بدراسة لغة ثقافية، و أعني لغة السرد، فالتحليل يكون متأثرا مباشرة ...بمنطوياته الإيديولوجية. إن ما يعتبر حاليا ((هو)) البنيوية مفهوم في الحقيقة سوسيولوجي جدا و مصنوع جدا، بالقدر الذي يرى فيها البعض مدرسة موحدة. و ليس الأمر كذلك على الإطلاق. فعلى صعيد البنيوية الفرنسية، على أي حال، توجد خلافات إيديولوجية عميقة بين مختلف ممثليها، الذين يوضعون بأجمعهم في سلّة بنيوية واحدة، مثلا ليفي ستروس، و دريدا، و لاكان، و ألوستير؛ فتوجد بالنتيجة انقسامية بنيوية، و إذا كان من اللازم موقعتها...؛ فإنها ستتبلور، فيما أعتقد، حول مفهوم العلم"[12]، إن رولان بارث يقدم تصورا تعمق بمرور الزمن يقيم من خلاله حدودا ترجمها بوضوح الناقد المغربي حميد لحمداني في كتابه "النقد الروائي و الإيديولوجيا" حين تعرض للاختلاف الذي بدا واضحا في الدراسات التطبيقية البنيوية للسرد، و لعل عرض الإجراءات التي اعتمدها بارث في تحليل لغة السرد و قارنتها مع مقاربة عربية موازية ستبين طبيعة هذه اللغة الناقدة بوضوح يفسر ذلك الاستنفار الملاحظ ضد هذه النظرية و ما مسّ لغة النقد الأدبي من تغيير و تحوّل أثر تأثيرا كبيرا على العملية النقدية التي ما عادت تحتذي النموذج، و حاول كل منها بناء خط خاص يتقاطع مع الأخر في المبدأ لا الإجراء و من ثمّ أضفى جملة من التحويلات بدت ضبابية و زئبقية أحيانا.

رؤية رولان بارث للنقد البنيوي للسرد:

في الفصل الأول من كتابه المعنون بالتحليل البنيوي للسرد يعرض رولان بارث رؤية إجرائية تخضع للبحث البنيوي و يسير فيه وفق مبادئ أربعة، أول ما يميزها اللغة المتخصصة من العنوان إلى طبيعة الإجراء، ففي المبدأ الأول و هو مبدأ التجريد يعتبر " النص كلام يحيل على لغة، و رسالة تحيل على نسق، و إنجاز يحيل على كفاية- و جميع هذه من ألفاظ اللسانيين- إن التحليل البنيوي للسرد هو في أساسه و تكوينه تحليل مقارن: إنه يبحث عن أشكال لا عن مضمون... و لهذه الغاية، يكون عالم اللسانيات مضطرا لجمع جمل، متن من الجمل. و لتحليل السرد المهمة ذاتها، فعليه أن يجمع محكيات، متنا من المحكيات، و يحاول أن يستنبط منها بنية. "[13] إن رولان بارث يحصر مبدأ التجريد في استجماع العناصر الأساسية للمحكي مستعملا ألفاظا هي ذاتها التي تتألف منها أية دراسة تنطلق في دراسة و تحليل السرد فلا يختلف قواميسها جميعا حول السميات و بالتالي القصدية موجودة و ثابتة بثبات المصطلح لكن تردد الإبدالات يتعلق بالمبادئ التالية، فالتجريد يعني الانطلاق من النسق أو من الكل ثم التدرج إلى الأجزاء، و تردد الإبدالات يتعلق لديه بتفعيل المبدأ الثاني و هو مبدأ الملاءمة و يقصد من خلاله " إثبات الفروق بين الأصوات في اللغة، بالقدر الذي تحيل فيه الفروق الأصوات هذه على فروق في المعنى، و فقط بهذا القدر: ذلك هو مبدأ الملاءمة؛ يتمّ البحث عن فروق في الشكل تشهد عليها فروق في المضمون؛ و هذه الفروق هي سمات ملائمة أو غير ملائمة"[14]، و لا يكتفي بارث بضبط الملاءمة حين لا يبدو في المعنى إلا جزء من التفسير المنقوص الذي قد يؤخذ على غير مقصده، لقد توقف عند حدود هذا المفهوم لتفسيره، منطلقا من الرؤية اللسانية التي تركز على أهمية المقصدية في العملية التواصلية، خاصة و أن هذا المفهوم يتعلق بجهاز إجرائي خاص منطقه الأساس هو اللغة، فالمعنى عنده لا يتعلق بتطابق الدلالة المعجمية مع استعمال اللفظ في السياق التواصلي و إنما يعتبر المعنى " كل نمط من الارتباط المتبادل داخل النص و خارجه، أي كل سمة في المحكي تحيل على لحظة أخرى في المحكي أو على موقع آخر من الثقافة ضروري لقراءة المحكي...و باختصار العائدية (إذا سمح لي بهذه الكلمة)، و كل الصلات، و كل الترابطات المتبادلة المركبة و الاستبدالية، و كل وقائع الدلالة و أيضا وقائع التوزيع."[15] وعند الاشتغال على مبدأ التعددية يطرح رولان بارث فكرة موقعة اللغة فالمقصود ليس إثبات المعنى الواحد و النهائي للنص بقدر ما يحاول أن يرسم موقع ممكنات النص " فكما أن لغة من اللغات هي ممكن الأقوال (اللغة هي الموقع الممكن لعدد معيّن من الأقوال، لا نهائي في حقيقة الأمر)، فما يرغب المحلل إثباته حين يبحث عن لغة السرد، هو موقع إمكان المعاني، أو أيضا تعدد المعنى أو المعنى باعتباره متعددا...وضمن هذه الشروط، لا يمكن للتحليل البنيوي أن يكون منهجا للتأويل؛ إنه لا يبحث عن تأويل النص"[16]، و من هذه النقطة تحديدا يقف رولان بارث ليعقد مكمن الاختلاف بين هذا النوع

من التحليل اللساني و مسمّى النقد الأدبي، " و هو نتيجة لذلك يختلف أساسا عمّا يسمّى بالنقد الأدبي، الذي هو نقد تأويلي، من نمط ماركسي، أو تحليل نفسي. فالتحليل البنيوي للنص مختلف عن أنماط النقد هذه، لأنه لا يبحث عن سرّ النص: بالنسبة له كلّ جذور النص ظاهرة للعيان؛ و ليس عليه أن يكشف عن الجذور ليعثر على الرئيسي منها."[17] و إن كان رولان بارث يقف هذا الموقف التبريري إزاء الإجراءات التي طبقها على النصوص السردية فهو يلتزم التزاما حرفيا بالإجراءات ذاتها التي اعتبرت منطلقا للنقد الغربيين و العرب للنظرية البنيوية في مقاربة النصوص السردية، و إن كان العرب قد حاولوا التعامل من خلالها بنوع من الخصوصية مع النص السردي العربي، و نوجز إجراءات بارث في النقاط التالية[18]:

- تقطيع النص: تقسيمه إلى أجزاء و قد يكون التقطيع اعتباطيا أو موجود شكلا كتقسيم الفقرات في النصوص أو الآيات في القرآن الكريم.
- جرد الأنساق الواردة في النص: و يطلق عليه: الجرد، الحصاد، الكشف، أو الفرز
- التنسيق: يعني الترابطات المتبادلة بين الوحدات الصغرى. و تكون هذه الترابطات داخلية أو خارجية. و هو مفهوم اقترحته جوليا كريستيفا يحيل إلى التناص عندما يحيل ملفوظ ما على نص آخر.

و إن كان رولان بارث لا يبتعد عن واقع الدراسة البنيوية العام للسرد فإنه يثبت من خلال كتابه-التحليل النصي- تلك العلاقة الوثيقة بين اللغة كأساس للقراءة البنيوية و يربطها بالجانب القصدي من خلال وثيقة أخرى تتمثل في القاموس اللساني الذي يشفع الدراسة و الذي لا يبتعد عن المصطلحات اللسانية الخاضعة للمناهج و خصوصا منها المنهج البنيوي، و هذا الثبت للمصلحات باب من أبواب إعلان ابتعاد الوثيقة عن أي نوع من الافتراضية التي تحاول العلوم الإنسانية توجيهها كعامل لنقد النسقية بأشكالها.

إن نظرة رولان بارث و إن كانت تأسيسية للتحليل البنيوي للسرد فقد مكنت مع غيرها من الرؤى الناضجة من تحقيق نوع من التكامل أفاد منه النقد العربي أيّما إفادة حيث لم يفصل النقاد العرب بين هذه الرؤى حتى تتوضح لديهم فكرة المنهج، إن هذه النظريات الحديثة مكّنت الدرس اللغوي العربي من بلوغ درجة عالية من التجديد و إبراز مدى الاتصال القوي بين عناصر النشاط اللغوي، فبعد أن استهلكت النظريات في تتبع التراث و بيان أثر اللسانيات فيه، استنفذت الجهد في إعادة توصيف اللغة العربية، و من ثمّ بدأ الانفتاح على تفعيل النظريات و المناهج اللسانية على النصوص الإبداعية بأشكالها و ألوانها، مع أن الانحياز واضح في معالجة السرديات العربية للإجراءات التي قررها جيرار جينيت. و لعل الناقد المغربي سعيد يقطين يعتبر من أهم النقاد العرب الذين أولوا فكرة الضبط الإجرائي أهمية بالغة حين ركز في كتابه تحليل الخطاب الروائي على مستويات هذا الخطاب و قارن

بين وجهات النظر الإجرائية بعناية ، استطاع أن يثبت أن الإجراءات التي اعتمدها جينيت تلبي القدرة الفعلية على مقاربة الخطابات السردية من ثلاثة زوايا هي[19]:

- الصيغة: السرد.
- الزمن: استيعاب الحكي.
- الرؤيا: الصوت السردي

و هذه العناصر تعد قواسم مشتركة بين السرديين الغرب و العرب. لقد ركز سعيد يقطين على تحليل الجوانب البنيوية الشكلية دون الإ حالة غلى الدلالة و هي الفكرة التي حاول رولان بارث توضيحها من خلال تجربته في التحليل النصي، مع العلم بأنه حاول ألا يحصر السرديات في مسمى الخطاب، مركزا أيضا على ضرورة إسقاط العامل الخارجي، بالتالي تلافى الوقوع في اللغة الواصفة التي هيمنت بشكل كبير على عديد الدراسات السردية العربية التي اقتحمت مجال البحث السردي منغمسة في فوضى مصطلحية بعيدة عن التناول الدقيق الذي كان يصبو إليه البحث البنيوي.

نقد لغة النقد البنيوي:

سجل النقد الموجّه للبنيوية من الجانبين، الأصيل الوفي للعلوم الإنسانية أو النسقي المرابض لاقتناص الخطأ في رؤى المنهج، سجل كلاهما بالنظر إلى الجانب اللغوي مزالق عدّة عبرت عن واقع حال النقد قبل أن تكون وجهات نظر ذاتية منغمسة في التجني على النظرية و فكرها، حيث يري الناقد شكري عزيز الماضي في كتابه "في نظرية الأدب" أن " الحديث عن البنيوية ليس بالأمر الهين لأن مصطلحاتها جديدة تماما، و مبادئها و مفاهيمها غير مألوفة، و من هنا تتسم كل الكتابات عنها وحولها بالغموض."[20] و إن كان هذا الحديث يبدو بعيدا عن الموضوعية فإن الناقد قام بضبط كل المصطلحات التي من شأنها أن تبين مدى هذا الغموض نذكر منها: الخطاب و الرسالة و الشفرة والترميز و الدال المدلول و النسق و الوظيفة ...و الحضور و الغياب و الجدلية و التأشيرة والوساطة و القرينة و المؤشرة و النواة و الحفز و السّمة و المرجع و المحور...فضلا عن التعامل مع اشتقاقت اعتبرها غريبة مثل:"موضع موضعة و مفهم و تموضع و تشظّي و مفصل و مفصلة وتمفصل تمفصلا و أطّر تأطيرا و جذّر تجذيرا و شكلن شكلنة و عصرن عصرنة، و المواسطة والخطاطة و الترميز و الكلامات و السّردات و السّرديات و المخيال و التصوّرات.."[21] و يضيف الناقد إلى ذلك ما يعتبره مجموعة من المخططات البهلوانية التي لا تضيف إلى النقد الأدبي بقدر ما تفقده الجمالية التي كان يتمتع بها من قبل، و يساهم الناقد حسام الخطيب في اعتبار ما فعلته البنيوية تخريبا و فسادا للذوق[22]، و مثل هذا النقد المستشري بين طبقة النقاد العرب المحتفين بالجانبين الذوقي و الجمالي يكاد يحسم نظرته للنظريات اللسانية التي غطت بأفكارها فترة كبيرة من القرن العشرين تناسلت بطريقة كبيرة وسريعة ، وأحالت الفكر

العربي إلى مطبعة للأفكار الغربية الغريبة رغم ما خاض فيه الخائضون من اللغويين من المحيط إلى الخليج على أن ما استكره من نقد هؤلاء هو اللغة الترميزية و الفلسفة الطاحنة المشحونة بالتفاعل اللغوي لا النفسي و لا التذوقي و كأنها تحاول تفسير متنها في حين تكون النصوص في قمّة الرضوخ للقراءات البسيطة و المفهومة و الواضحة. لا يعتبر النقد البنيوي جهاز مفاهيمي معرفي بعيد عن العملية التواصلية بحيث سعى منذ البداية لتقديم جميع المبررات الممكنة للإجراءات و المصطلحات و المفاهيم، إن القصدية التواصلية عامل أساسي لاعتبار لغة النقد البنيوي خاصة وواضحة لكنها لا زالت تحتاج إلى تعزيز قواميسها و معاجمها بمستويات التباين التي تشوش على المتلقي و تخترق النظام التواصلي بعناية، إنها الجزئية التي يجب على الدراسات النقدية المعاصرة الانتباه إليها عوض تجاوزها للانتقال إلى منظومة مفاهيمية و معرفية ومصطلحية لن تكون سوى أكثر بعدا عن الفهم العام من سابقتها.

الهوامش :

---

[1]- فردناند دي سوسير، **محاضرات في الألسنية العامة**، تر:يوسف غازي و مجيدالنصر، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر،الجزائر، (د.ط)، 1986،ص:21.

[2]- عثمانابن جنّي، **الخصائص**، تح: محمد علي النجّار، سلسلة القسم الأدبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط:2، ج :01، 1952، ص:33.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تح:علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي للطبع(طبعة منقحة ومزيدة)، ط:2، 1968، ص:1374.

[4]- عبد المالك مرتاض، **في نظرية النقد**، ص:161-162.

[5]- أحمد يوسف، **القراءة النسقية (سلطة البنية و وهم المحايثة)**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:01، 1428هـ - 2007، ص:72.

[6]- جون ستروك، **البنيوية و ما بعدها**، تر : جابر عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص:13.

[7]- أحمد يوسف، **القراءة النسقية (سلطة البنية و وهم المحايثة)**، ص:83.

[8]- نفسه، ص:117.

[9]- نفسه، ص :123.

[10]- نفسه، ص :555.

[11]- رولان بارث، **التحليل النصي**، تر:عبد الكبير الشرقاوي، دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر،دمشق، سوريا، 2009، ص:23.

[12]- نفسه، ص:25.

[13]- نفسه، ص :27.

[14]- نفسه، ص :28.

[15]- نفسه،ص:28.

[16]- نفسه، ص:32.

[17]- نفسه، ص:32

[18]- نفسه، ص :33،35.

[19]– ينظر: سعيد يقطين، **تحليل الخطاب الروائي(الزمن–السرد–التبئير)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط:01، 1989.

[20]– شكري عزيز الماضي، **في نظرية الأدب**، دار الحداثة، بيروت، 1986، ص :182

[21]– ينظر: إبراهيم عوض، **مناهج النقد العربي الحديث**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2005، ص:210.

[22]– ينظر: حسام الخطيب، **جوانب من الأدب و النقد في الغرب**، جامعة دمشق، 1415هـ– 1994م،ص:453.